بسم الله الرحمن الرحيم

أَثَرُ اسْتِقْرَارِ الْأُسْرَةِ فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ 26 ذُو الْحِجَّةِ 1447هـ

عِبَادَ اللهِ: أُوصِيكُمْ وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللهِ ﷻ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْأُسْرَةُ هِيَ نَوَاةُ الْمُجْتَمَعِ، وَهِيَ اللَّبِنَةُ الْأُولَىٰ فِي تَكْوِينِهِ، وَعَلَيْهَا يُبْنَىٰ مَجْدُهُ، وَيَعْلُو شَأْنُهُ؛ وَلِذَلِكَ اعْتَنَىٰ دِينُنَا الْحَنِيفُ بِبِنَاءِ الْأُسْرَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَأَوْلَىٰ أَهَمِّيَّةً بَالِغَةً لِتَكْوِينِهَا؛ لِأَنَّهَا مِنْ أَهَمِّ مُكَوِّنَاتِ الْمُجْتَمَعِ.

وَلَقَدِ امْتَنَّ اللهُ ﷻ عَلَيْنَا بِنِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ جِدًّا، أَنْ خَلَقَ لَنَا مِنْ أَنْفُسِنَا أَزْوَاجًا؛ لِنَسْكُنَ إِلَيْهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وَجَعَلَ الْإِسْلَامُ ضَوَابِطَ مُهِمَّةً فِي الِاخْتِيَارِ الصَّحِيحِ لِكُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ لِبِنَاءِ أُسْرَةٍ صَالِحَةٍ؛ إِذْ الِاخْتِيَارُ الصَّحِيحُ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ نَجَاحِ الْأُسَرِ؛ لِيَتَحَقَّقَ فِيهَا الْمَوَدَّةُ وَالرَّحْمَةُ، وَهَذَا أَهَمُّ عَطَاءٍ لِلْبَيْتِ الْأُسَرِيِّ الْجَدِيدِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَىٰ؛ **وَلِذَلِكَ قَالَ** ﷺ **فِي اخْتِيَارِ الزَّوْجَةِ:** «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَجَعَلَ مِنْ أَهَمِّ الْأَشْيَاءِ فِي اخْتِيَارِ الزَّوْجِ: الدِّينَ وَالْخُلُقَ؛ لِأَنَّهُ الْقَيِّمُ الْمُمْسِكُ بِدَفَّةِ سَفِينَةِ الْأُسْرَةِ، فَإِذَا كَانَ ذَا خُلُقٍ وَدِينٍ طَبَعَ الْأُسْرَةَ بِطَابَعِهِ، وَوَقِيَ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ النَّارَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ».

وَقَالَ رَجُلٌ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «قَدْ خَطَبَ ابْنَتِي جَمَاعَةٌ فَمَنْ أُزَوِّجُهَا؟ قَالَ: مِمَّنْ يَتَّقِي اللهَ، فَإِنْ أَحَبَّهَا أَكْرَمَهَا، وَإِنْ أَبْغَضَهَا لَمْ يَظْلِمْهَا ». ذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «شَرْحِ السُّنَّةِ».

وَبَعْدَ الِاخْتِيَارِ الصَّحِيحِ عَلَى الْوَالِدَيْنِ تَوْجِيهُ الْأَبْنَاءِ إِلَى تَعْظِيمِ وَاحْتِرَامِ عَقْدِ الزَّوْجِيَّةِ. ذَلِكَ الْمِيثَاقُ الْغَلِيظُ، وَالْعَقْدُ وَالرِّبَاطُ الْقَوِيُّ الْمُحْكَمُ، الَّذِي وَصَفَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي صِفَةِ حَجَّةِ النَّبِي ﷺ، وَذَكَرَ خُطْبَتَهُ ﷺ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ، وَمِمَّا جَاءَ فِيهَا: «فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ».

وَكَذَلِكَ تَوْجِيهُ الزَّوْجَيْنِ إِلَى أَنَّ الْمِفْتَاحَ الْأَسَاسِيَّ لِلسَّعَادَةِ الزَّوْجِيَّةِ وَتَكْوِينِ الْأُسْرَةِ السَّعِيدَةِ هُوَ: تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْمُعَاشَرَةِ، وَتَبَادُلُ مَشَاعِرِ الْحُبِّ وَالِاحْتِرَامِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»، وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اتَّقُوا اللهَ -تَعَالَى- وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلْوَالِدَيْنِ الدَّوْرَ الْكَبِيرَ فِي تَنْشِئَةِ جِيلٍ قَادِرٍ عَلَى تَحَمُّلِ الْمَسْؤُولِيَّةِ الْأُسَرِيَّةِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ الْمَقْرُونِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالَّذِي مِنْهُ: الْعِشْرَةُ بِالْمَعْرُوفِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ؛ مِنْ جَمِيلِ الْأَقْوَالِ، وَتَحْسِينِ الْأَفْعَالِ، وَطَلَاقَةِ الْوَجْهِ، وَاسْتِدَامَةِ الْبِشْرِ، وَتَوْسِيعِ النَّفَقَةِ دُونَ إِسْرَافٍ، وَقِيَامِ كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ بِمَا يُحِبُّ أَنْ يَقُومَ لَهُ الْآخَرُ؛ لِتَتَحَقَّقَ السَّعَادَةُ، وَتَحْصُلَ السَّكِينَةُ، وَتَسْتَقِرَّ الْبُيُوتُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وَأَيْضًا تَرْبِيَةُ الْأَبْنَاءِ وَالْبَنَاتِ عَلَىٰ الرِّضَا وَالْقَنَاعَةِ، وَأَنَّ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَىٰ الرِّضَا وَالْقَنَاعَةَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لِلْعِبَادِ مِنْ أَرْزَاقٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾. أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَىٰ النَّاسِ»، وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْغِنَىٰ عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ؛ وَلَكِنَّ الْغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ». فَالْغِنَىٰ الْحَقِيقِيُّ الْمُعْتَبَرُ يَكُونُ بِالرِّضَا وَالْقَنَاعَةِ وَاسْتِغْنَاءِ النَّفْسِ، وَعَدَمِ الْحِرْصِ عَلَىٰ الدُّنْيَا؛ بَلْ يَكُونُ الْحِرْصُ عَلَىٰ الدِّينِ وَالْخُلُقِ، وَلِذَلِكَ رُبَّمَا تَجِدُ مَنْ يَمْلِكُ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَالِ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ فَقِيرُ النَّفْسِ، مُجْتَهِدٌ فِي الزِّيَادَةِ وَالاِسْتِكْثَارِ، فَهُوَ لَا يَعِيشُ عِيشَةَ الْأَغْنِيَاءِ، وَإِنَّمَا يَعِيشُ عِيشَةَ الْفَقْرِ مَعَ الْخَوْفِ وَالْهَلَعِ؛ وَهَذَا مِنْ أَشَدِّ الْآفَاتِ فِي هَدْمِ الْبَيْتِ الْأُسَرِيِّ، وَانْحِرَافِ أَفْرَادِهِ وَتَفَرُّقِهِمْ. قَالَ عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

الـنَّفْسُ تَجْـزَعُ أَنْ تَكُـونَ فَقِيـرَةً ... وَالْفَقْـرُ خَيْـرٌ مِـنْ غِنًـىٰ يُطْغِيهَـا

وَغِنَىٰ النُّفُوسِ هُوَ الْكَفَافُ فَإِنْ أَبَتْ ... فَجَمِيـعُ مَـا فِـي الْأَرْضِ لَا يَكْفِيهَـا

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الشَّارِعَ الْحَكِيمَ قَدْ حَرَصَ عَلَىٰ الْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْأُسْرَةِ وَتَمَاسُكِهَا، وَرَغَّبَ فِي الْإِبْقَاءِ عَلَىٰ عَقْدِ النِّكَاحِ، وَأَمَرَ الزَّوْجَ بِالْمُعَاشَرَةِ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَوْ مَعَ كَرَاهَتِهِ لِزَوْجَتِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، وَوَصَفَ اللهُ تَعَالَىٰ عَقْدَ النِّكَاحِ بِالْمِيثَاقِ الْغَلِيظِ، فَقَالَ: ﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾، وَمُقْتَضَىٰ وَصْفِهِ بِذَلِكَ الِاسْتِدَامَةُ وَالسَّكَنُ وَالِاسْتِقْرَارُ؛ لِهَذَا يَجِبُ عَلَىٰ الزَّوْجَيْنِ أَنْ يُقَاوِمَا كُلَّ مَا يَتَهَدَّدُ هَذِهِ الْمَطَالِبَ السَّنِيَّةَ، فَيَتَجَاوَزَا مَا يَقَعُ مِنَ الْخِلَافَاتِ الزَّوْجِيَّةِ الَّتِي قَدْ تُفْسِدُ تِلْكَ الرَّابِطَةَ الْمُحْكَمَةَ، وَالْعَلَاقَةَ الْمَتِينَةَ، فَإِنَّ حَلَّ عَقْدِ النِّكَاحِ، وَطَلَبَ الِانْفِصَالِ مِنْ قِبَلِ الزَّوْجَةِ أَمْرٌ مَحْظُورٌ، لَا يُلْجَأُ إِلَيْهِ إِلَّا

عِنْدَ تَعَذُّرِ اسْتِمْرَارِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ، وَبَعْدَ اسْتِنْفَادِ جَمِيعِ الطُّرُقِ، أَخْرَجَ النَّسَائِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْمُنْتَزِعَاتُ وَالْمُخْتَلِعَاتُ هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ».

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ مِمَّا يُؤَكِّدُ هَذَا الْمَعْنَىٰ وُرُودَ النُّصُوصِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي تُحَذِّرُ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، الْمُؤَدِّيَةِ إِلَىٰ الطَّلَاقِ، وَمِنْ ذَلِكَ: مَا أَخْرَجَهُ أَبُودَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَىٰ زَوْجِهَا» أَيْ خَدَعَ وَأَفْسَدَ امْرَأَةً عَلَىٰ زَوْجِهَا، بِأَنْ يَذْكُرَ مَسَاوِئَ الزَّوْجِ عِنْدَ امْرَأَتِهِ، أَوْ مَحَاسِنَ أَجْنَبِيٍّ عِنْدَهَا. وَأَخْرَجَ أَبُودَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقًا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»، وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تَسْأَلُ طَلَاقَ أُخْتِهَا، لِتَسْتَفْرِغَ صَحْفَتَهَا، فَإِنَّمَا لَهَا مَا قُدِّرَ لَهَا».

عِبَادَ اللهِ: خُلُقٌ ذَمِيمٌ اعْتَرَىٰ بَعْضَ الْفَتَيَاتِ، وَهُوَ الْعُزُوفُ عَنِ الزَّوَاجِ. فَقَدْ لَبَّسَ بِهِ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ بَعْضِ الْفَتَيَاتِ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَتَحَمَّلَ الْمَسْؤُولِيَّةَ، أَوْ أَنْ يُسَيْطِرَ الزَّوْجُ عَلَىٰ حُرِّيَّتِهَا؛ وَيَمْنَعَهَا مِنَ الِاسْتِقْلَالِيَّةِ، فَلَا تَخْرُجُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَيَرْفُضُ أَنْ تَعْمَلَ، أَوْ يَمْنَعُهَا مِنَ الِاسْتِمْرَارِ فِي وَظِيفَتِهَا، وَهَذَا نَاتِجٌ عَنْ رَدَّةِ فِعْلٍ بِسَبَبِ تَصَرُّفَاتٍ خَاطِئَةٍ لِبَعْضِ الْأَزْوَاجِ، وَتَجَاوُزِهِمْ فِي مُعَامَلَتِهِمْ لِأَزْوَاجِهِمْ، مُخَالِفِينَ أَمْرَ رَبِّهِمْ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْقَوَامَةَ أَمْرٌ شَرْعِيٌّ، تَعْنِي قِيَامَ الزَّوْجِ بِمَا يُصْلِحُ شَأْنَ زَوْجَتِهِ، بِالتَّدْبِيرِ وَالصِّيَانَةِ، وَهُوَ تَكْلِيفٌ لِلزَّوْجِ، وَتَشْرِيفٌ لِلْمَرْأَةِ، وَتَكْرِيمٌ لَهَا بِأَنْ جَعَلَهَا تَحْتَ قَيِّمٍ يَقُومُ عَلَىٰ شُؤُونِهَا، وَيَنْظُرُ فِي مَصَالِحِهَا، وَيَذُبُّ عَنْهَا، وَيَبْذُلُ الْأَسْبَابَ الْمُحَقِّقَةَ لِسَعَادَتِهَا وَطُمَأْنِينَتِهَا.

وَمِنْ أَسْبَابِ عُزُوفِ بَعْضِ الْفَتَيَاتِ عَنِ الزَّوَاجِ أَيْضًا: الْخَوْفُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَصِيرُهُنَّ كَمَصِيرِ مَنْ طُلِّقَتْ بَعْدَ فَشَلِ حَيَاتِهَا الزَّوْجِيَّةِ. وَهَذَا خَطَأٌ! فَكَمْ مِنْ فَتَاةٍ تَزَوَّجَتْ وَاسْتَقَرَّتْ أُمُورُهَا، وَسَعِدَتْ مَعَ زَوْجِهَا، وَعَاشَتْ حَيَاةً هَنِيئَةً، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا بِفَضْلِ اللهِ فِرَاقٌ، بَلْ مَوَدَّةٌ وَرَحْمَةٌ.